التداولية والدرس البلاغي : نحو تنمية القدرة التواصلية للمتعلمين

The pragmatics and the rhetorical lesson:

Towards developing the communicative ability of learners

الأستاذة حبيبة حلحاز

جامعة 20 أوت 1955م /سكيكدة

الملخص :

اتسم الدرس البلاغي لعقود من الزمن بسبب الترسبات الأرسطية التي كانت عالقة في وعي أجيال وأجيال ، بنوع من الجمود كونه التزم حدود نظرة عقلانية ضيقة ومتعالية ، قزمت من شأن البلاغة وحصرتها في الجانب التنميقي للنص، ما انعكس سلبا على عملية تعليمها ، لكن الانفتاح على السياقات التداولية كشف عن قيم الاستعمال والفعالية والتأثير البارزة في الخطابات المتنوعة العادية منها والإبداعية وحتى الرسمية ، نقلها من مجرد وسيط تعبيري ومجرد زخرف إلى كونها أداة تواصل وتأثير ومسهمة في إنتاج المعرفة وصار المعلم وهو جزء من العملية التعليمية يحاول إكساب المتعلمين القدرة على وصف الظواهر البلاغية في محاولة لتعليل الدلالات تعليلا يتجاوز حدود اللساني من خلال القرائن والسياقات المختلفة ما يجعله يقف على الطاقات الكامنة للغة البلاغية بكل صورها .

الكلمات المفتاحية: التداولية، البلاغة، التعليمية، التواصل

Abstract

For decades, the rhetorical lesson was characterized by the Aristotelian sediments that were stuck in the consciousness of many generations by a kind of inertia as it adhered to the limits of a narrow and arrogant rational outlook that dwarfed the rhetoric and restricted it to the stylistic side of the text, which reflected negatively on its teaching process, but the openness to pragmatics contexts revealed the values of use, effectiveness and influence prominent in various ordinary, creative and even official speeches, transferring them from mere expressive medium and mere decoration to being a tool of communication, influence and contribution to the production of knowledge, and the teacher became part of the educational process trying to empower learners to describe rhetorical phenomena in an attempt to explain connotations so that it goes beyond the limits of the linguistic through the various clues and contexts, which makes it stand on the potential energies of rhetorical language in all its forms.

Key words: pragmatics, rhetoric, didactic, communication

تقديم :

إن التطور المعرفي المتسارع الذي يشهده العصر الحديث والمعاصر ، خاصة في مجال العلوم الإنسانية واللغوية بوجه خاص ، يحتم على المشتغلين في هذا المجال أخذ هذه التطورات بعين الاعتبار ، وإعادة النظر في بعض المسلمات التي ركنوا إليها لعقود من الزمن ،والاستفادة من الانعكاسات الفكرية والحضارية والعلمية لهذه التطورات بما يخدم البيئة التعليمية للناشئة حتى لا تجد هذه الأخيرة نفسها في معزل عن سيرورة معرفية عالمية متجددة .

وإن أسوأ ما يمكن أن يطبع الدرس التعليمي اليوم هو الوقوع في النمطية والسطحية في تناول الظاهرة اللغوية والبلاغية بصفة خاصة ، وهو الأمر الذي ينعكس سلبا على القدرة التواصلية للمتعلمين وعلى التحصيل المثالي لهم.

أولا- التحول المعرفي في النظر إلى البلاغة

تتسم البلاغة بشكل عام بطابع موسوعي يجعلها تتلاقح مع كثير من المعارف اللغوية والإنسانية ، بعد أن ركنت حتى زمن ليس ببعيد داخل أسوار المنطق الأرسطي، رغم ما قدمه هذا الأخير لمباحثها من أطر نظرية فرضت على المعتقدين والمنتقدين فيما بعد أن تكون انطلاقتهم من الأرضية الأرسطية في دراسة الظاهرة البلاغية، وقد تأثر معظم البلاغيين العرب مثل غيرهم بها ، ما جعل نتاجهم يتدارس حتى عصرنا الحديث الذي شهد في معظمه ترديدا لما قدمته البلاغة القديمة ليس أكثر، بتحويل إنجازاتها إلى المدرسة والجامعة ،وما حصل هو انبهار طيلة القرن العشرين بالوافد الجديد من أسلوبيات غربية وشعريات " "ولم يتم الاحتفاء بالأنساق الضمنية في البلاغة القديمة لأجل تطوير الأدوات التأويلية فيها . ولعل الدراسات المنجزة أكاديميا كانت تسعى إلى توصيف المرحلة التاريخية لبناء البلاغة العربية أو مناقشة قضاياها وإشكالاتها ،وتتبع ثوابتها ومتغيراتها ، وتمحيص مفاهيمها ،أو تحقيق متونها ."[1] وبذلك بقيت البلاغة العربية في حاجة إلى رؤية تجديدية دينامية سواء من حيث تعلمها أو تعليمها ، رؤية لا تقفز على

المنجز بقدر ما تعيد النظر في الآراء المختلفة وتلك التفريعات محاولة إيجاد جدوى تأويلية ومنهجية، تنقذ البلاغة من فوضى تقسيمات قد تطفو بها نحو زبد يظهر في السطح لا طائل منه، فيما يجب أن تتجه الجهود إلى الغوص نحو أعماق تأويلية لم تكتشف بعد بآليات جديدة، يعد التناول التداولي للبلاغة إحداها أو ما أطلقوا عليه اسم البلاغة الجديدة ، هذه النظرة التي " تبلورت بشكل فلسفي لدى لودفيك فتغنشتاين تنطلق من إعادة التفكير في مسألة المعنى بما يتناسب مع أغراض الكلام وحياة الدلالة "[2] ، وهو ارتباط نفعي يحقق جملة من الأغراض التواصلية التي يبنى الخطاب من أجل تحقيقها ، ومثل هذه البلاغة إنما هي في الأصل الجانب التداولي من البلاغة القديمة من خلال " تلحيم أطراف الخطاب الأساسة وهي المخاطب والمخاطب والبعد التأثيري والإقناعي للغة والذي لا يظهر في البنية الصورية لنسقها الداخلي فقط ، وإنما في القيم الخطابية المشحونة بوساطة الاستعارة ،الإطناب ، الإيجاز وغيرها من الأشكال البلاغية التي تمارس فعاليتها الاجتماعية ، الإقناعية التي تدفع إلى القيام بالفعل "[3] ، وفي هذا السياق نورد قصة ذلك المتسول الضرير في أحد شوارع نيويورك والذي مر عليه أحد الباحثين في مجال اللغة ، فسأله عن معدل مدخوله اليومي فأجابه بأنه لا يتجاوز الدولارين ، وكان الرجل المتسول يحمل لوحة بيديه كتب عليها عبارة تقريرية تصف حالته بصدق وهي عبارة " أعمى منذ الولادة "، فأخذ الباحث اللوحة واستبدل العبارة بعبارة ، على أن يعود بعد شهر ليرى مفعول هذه العبارة الجديدة في زيادة مدخول هذا المتسول ، وعندما مرت المدة ورجع ، بادر المتسول الأعمى إلى شكره لأن مدخوله خلال هذه المدة تضاعف إلى حوالي ستة عشر دولارا، وسأله عن فحوى العبارة التي جعلته يحصل على هذا المال ، فأجابه الباحث قائلا استبدلت عبارة "أعمى منذ الولادة " بعبارة "إن الربيع على الأبواب وأنا لن أستمتع بمشاهدته"[4] ، فكان مفعول هذه العبارة البلاغية المشحونة بالصور البلاغية أوقع في نفوس الناس وأقدر على تغيير موقفهم اتجاهه واستمالة عواطفهم للرأفة به من تلك العبارة التي تلامس حقيقة حاله .

فالبلاغة إذن ليست تنميقا أو تزيينا زائدا يضاف إلى الحقيقة بل هي خاصية لغوية تشكل دافعية حقيقية للفعل الإنساني بمستوياته السياسية والاجتماعية والأخلاقية والدينية لتتحول قيمة الحقيقة لجملة ما بعد أن كانت تنحصر في البناء الدلالي لها ، إلى ارتباطها بالواقع حيث تنتقل الحقيقة من طابعها الدلالي المتعلق بقيمتي الصدق والكذب إلى طابعها التداولي المتعلق بقيم الاستعمال والفعالية والتأثير [5] ، وهو ما يبرر تواجدها في كافة المظاهر اللغوية الإنسانية ما تعلق منها باللغة العادية اليومية ، أو باللغة الإبداعية ، أو اللغة الرسمية ، فالبلاغة عليها بهذا المفهوم أن تنفتح على اللسانيات والسيميائيات و غيرها من المعارف الحديثة حتى تكون فعليا تلك الخاصية اللغوية التي تشكل دافعية حقيقية للفعل الإنساني بمستوياته السياسية ، الاجتماعية والأخلاقية والدينية. وتنأى عن كونها، خادمة للمثال الفكري ، كالتعريفات، فتجدهم – البلاغيين ومدرسو البلاغة - يضعون التعريف في البداية ثم يسوقون ما يناسبه من شواهد ، مخضعة بذلك النص إلى شروطه ، مدافعة عنه كأنه الغاية والمعيار ، ما أدى إلى أن تصبح دراسة النص الأدبي ثانوية وأكثر من ذلك تصبح خادمة للمثال الفكري [6] ، وبمجيء التداولية زال ذلك التعالي على النصوص وصارت دراسة اللغة عامة والأوجه البلاغية جزء من بنيتها المتعالقة ، من الناحية التداولية تتأسس على معرفة وتحقيق غرض ما تمت صياغة الخطاب لأجله سواء كان جملة أو عبارة أو نصا ، وهو ما كان أهل العربية قديما يطلقون عليه اسم " القصد" الذي يمكن بطريقة ما إخفاءه عن طريق المسالك البلاغية المتنوعة التي تبني خطاباتها على العدول، المهم عندهم أن القصد شرط في الدلالة " فما يفهم من غير قصد من المتكلم لا يكون مدلولا للفظ عندهم . إن الدلالة عندهم هي فهم المقصود لا فهم المعنى المطلق إن ما يفهم من غير قصد لا يؤدي إلى إتمام التواصل "[7] ، والتواصل هو هدف استعمال الإنسان للنظام اللغوي ، ولهذا يحمل تجديد تعليم البلاغة على عاتقه تنمية القدرة التواصلية للمتعلمين ، ولكن قبل أن نتحدث عن هذا الجانب التعليمي نعرف أولا ماذا يقصد المتخصصون بمفهوم القدرة التواصلية ؟

ثانيا : ماهي القدرة التواصلية :

يدل مفهوم القدرة من منظور تشومسكي على المقدرة التي تعني المعرفة النحوية بالأساس ، غير أن تطور مباحث علم اللغة النفسي وعلم اللغة الاجتماعي وسع مدلول القدرة بحكم اقترانها بالكلام وسياقاته وأصبحت القدرة ما يستطيع الأفراد القيام به ، وبذلك أضحت القدرة بمثابة نشاط أو ممارسة شيء ما من مثل القدرة على التعيين أو المقارنة أو التحليل أو التأليف أو التصنيف أو الملاحظة او المزج .. [8] ومن ثمة فإن المتعلم لا يدرك معنى ما يكتسبه الموقف إلا إذا نزّله في إشكال يطرح عليه ويسعى إلى حله بتوظيف مكتسباته المعرفية ،" غالبا ما يبدو أن التلميذ يتعلم عندما يختزن المعلومات ، ولكن هذا النطباع مجرد وهم ، لأنه غالبا ما يحدث أن معظم المعارف تزول بسرعة ... وهكذا نكرر القواعد ونطبق التقنيات وعندما تظهر وضعية تتطلب فهما حقيقيا ، يكون التلميذ عاجزا عن فهم مدلول القاعدة فكأنما لم يسبق له أن تعلمها "[9] فالقدرة التواصلية إذن تركز تعليميا على تحويل المعلومة إلى فعل وتفعيل المعارف والمعلومات والسلوكات ومختلف التجارب إلى قدرة توجه المسائل المطروحة وتحقق مهمة ما ، و البلاغة خاصة منها الإقناعية تقوم بوظيفة التربية " وتقويم السلوك والوعي الاجتماعيين وفق عقلانية تنطلق من تمحيص اللغة وربط السلوك الاجتماعي بمعطياتها وهذا ما يحدد البعد التداولي للبلاغة من خلال تداولية اللغة نفسها ودورها الإقناعي "[10] فاللغة ليست وسيطا تعبيريا فحسب بل هي أداة تواصل والبلاغة ليست زخرفا لفظيا فحسب بل هي الجانب الفاعل في الخطاب الذي يحدث التغيير ويسهم في إنتاج المعرفة ،وامتلاكها ضمنيا وكذا تتكون القدرة التواصلية التي هي بتعبير آخر" عملية لا شعورية تجسدها عملية الكلام ، وذلك بالربط بين المعاني والتراكيب والاصوات اللغوية طبق القواعد اللغوية وحسب سياقات المقام"[11] إنها باختصار عملية بث للرسائل في وسط اجتماعي معين .

ثالثا : تعليمية الدرس البلاغي :

لقد بينت دراسات عديدة أن نمط الخطاب البيداغوجي الذي يستخدمه المدرس سينشئ آثارا خاصة لا في مشاركات المتعلمين بل في سلوكهم واكتسابهم للغة بصفة عامة ، حيث أن خطاب الأنا الذي يجعل المعلم محور العملية التعليمية وما ينجرّ عنه من حوار تسلطي باعتبار المعلم الوحيد الذي يعرف النتائج مسبقا لا يفيد المتعلم وقد تبين من مسح قامت به ماري بارث Britt-marie Barth أن تصور التلاميذ للمعرفة يتوقف على السلطة التي يمارسها المدرسون على التلاميذ ، قال لها تلميذ في الحادية عشرة من عمره لما سألته : ما هي المعرفة ؟ فأجاب : المعرفة هي ما يمتلكه الأستاذ والتي لا نعرفها ، المعرفة هي ما يستظهر عن ظهر قلب "[12] العرفانية وبناء المعرفو ص 216

ومثل هذا التصور لدي المتعلم لا ينمي لديه القدرة التواصلية باعتباره عنصرا هامشيا مستهلكا وليس فاعلا ، بينما خطاب الأنت الذي يعتبر المتعلم هو محور العملية التعليمية ويجعل المعلم يتمشى استنتاجيا مع المتعلمين عبر إثارة استدلالات حجاجية خارج أي عملية حكم مسبق [13] ،ومثل هذا الخطاب عليه أن يتواتر في تدريس البلاغة في مختلف الأطوار التعليمية ، لأن الدرس البلاغي شأنه في ذلك شأن مكونات اللغة عامة تهدف إلى تنمية القدرة أو الكفاءة التواصلية والمنهجية والثقافية وتعميق القيم والمواقف الوجدانية ، ويمكن الوقوف على معايير توظيف القدرة التواصلية في العملية التعليمية من خلال بعض المواقف التعليمية المحصلة نذكر منها :

- توليد اللغة وربط القول بسياقات المقام

- التنميط المناسب للنص طبقا لغرضه وأبعاده ومن ثمة استجلاء الأعراف الاجتماعية والثقافية لنص ما ، هذا النص الذي لا يلو من الظواهر البلاغية والتي تحتاج إلى تجديد التحليل النصي بشكل معمق ، فلم يعد مقبولا البحث فقط عما أراد الكاتب قوله ولا إنجاز تحليل مستفرغ لنص من النصوص أو إيراد المعنى الذي أفاده النص ، ما يمكننا القيام به هو تعليل الدلالة تعليلا ما وراء لساني من خلال القرائن والاستدلالات وتحلل الوجوه البلاغية التي تحضر بكثافة

في النص الادبي مثلا كالاستعارة بوصفها أعمالا غير مباشرة [14] ، فقد أكدت دراسات عديدة أخيرا أنه بالانتقال من الدراسة المفتوحة للنظام اللغوي ولتنويعاته إلى دراسة نمط معين ، تتم معرفة ذلك النمط البلاغي مثلا معرفة جيدة من الداخل كما تنمي الكفاءات التواصلية العامة بشكل أفضل والعكس أي فرض نمط خاص قبل الانتقال إلى ذلك التحليل القاصر[15] يعد إما سيئا بالنسبة إلى التحكم بذلك النمط وهو أسوأ بالنسبة لتنمية القدرة التواصلية وهو الغاية التي يصبو إليها المدرس ومن المظاهر بلوغ ذلك في العملية التعليمية والتي يمكن أن يلاحظها المدرس على مستوى تلاميذه نذكر:

- التمكن من التعبير عن فكرة واحدة بأكثر من أسلوب .
- التمكن من مطابقة المقال للمقام.

هذا من الناحية التواصلية ،أما من الناحية المنهجية ، فيهدف الدرس البلاغي إلى اكساب المتعلم القدرة على وصف الظواهر البلاغية واستقرائها والمقارنة بينها ، وكذا التمكن من تطبيق القواعد والمفاهيم والأساليب كتابة وشفاها، ومن ثمة التمكن من التعامل مع النصوص الإيحائية والواصفة والتقريرية ، أما من الناحية الثقافية فهناك عدة مكتسبات يمكن للمتعلم تحصيلها وتدور حول اكتساب معارف بلاغية تعتبر القواعد الأساسة التي بنيت عليها البلاغة، منها معرفة علوم البلاغة العربية ووجوهها وكذا معرفة الخصائص البلاغية للغة الأدبية وغير الأدبية[16].

ويمكن القول بعد هذا العرض المختصر لبعض ملامح تعليمية البلاغة العربية ، أن البلاغة كغيرها من المعارف ينبغي أن تكون انعكاسا لاحتياجات الجماعة اللغوية ، أي أنها جزء من الواقع المتداول بين الناس هي الحاملة لأفكاره والمترجمة لمواقف الناس وعقائدهم ونظرتهم إلى الحياة والكون من حولهم ، ومن ثمة كان لزاما عليها أن تتجدد بالانفتاح على العلوم اللغوية الجديدة والاستفادة من الآليات والمقاربات التي أثبتت جدارتها و أعادت صياغة المفاهيم القديمة وطورتها بما يتناسب والبنية الحضارية والعلمية لعصرنا الراهن ، وهو ما انعكس

إيجابا على المستوى التعليمي الذي لابد أن يأخذ من يمارسه بعين الاعتبار المعطيات الإجتماعية والثقافية والبيئية جنبا إلى جنب مع المعطيات اللغوية ، لأن البلاغة حاصل تفاعلهما .

الهوامش :

(1)- محمد البازي : **البنى الاستعارية نحو بلاغة موسعة ، منشورات الاختلاف ،ط1 ، 1438ه /2017م ، لبنان، ص 30**

(2)- عمارة ناصر : الفلسفة والبلاغة، مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي ، منشورات الاختلاف ،ط1، 1430ه/ 2009م، لبنان ص 69

(3)- المرجع نفسه ، ص17.

(4)- القصة وردت في كتاب محمد الولي : الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية ، دار الأمان ، ط11426ه/ 2005م ، الرباط ، ص

(5)- عمارة ناصر:الفلسفة والبلاغة ، ص 68.

(6)- مهدي صالح السامرائي :**المجاز في البلاغة العربية ، دار ابن كثير ،ط1 ، 1436ه/ 2015م ، ص 151**

(7)- عبد السلام إسماعيلي علوي : السيميولسانيات وفلسفة اللغة ، بحث في تداوليات المعنى والتجاوز الدلالي ، دار كنوز المعرفة، ط1، 1438ه/ 2017م ، عمان ، ص 75، 76.

(8)- رضا الكشو : مقال بعنوان من إشكاليات القدرة التواصلية مجلة اللسانيات العربية : مجلة علمية محكمة تصدر عن مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللغة العربية ، ، العدد الثالث ، جامدى الآخرة1437ه/ مارس 2016م ،ص 196.

(9)- عبد الرزاق عمار : العرفانية وبناء المعرفة ، دار سحر للنشر ، تونس ، (دط) ، نوفمبر 2014م ،ص 215

(10)- عمارة ناصر: الفلسفة والبلاغة ، ص 36

(11)- مجلة اللسانيات :رضا الكشو : من إشكاليات القدرة التواصلية ،العدد الثالث ص194.

(12)- صابر الحباشة : التداولية والحجاج ، مداخل ونصوص ،صفحات للدراسات والنشر، ط1 ، 2008م ، دمشق ، ص188.

(13)- عبد الرزاق عمار:العرفانية وبناء المعرفة ، ص 216

(14)- المرجع نفسه ،ص 195

(15)- المرجع نفسه ، ص 188

(16)- عمر أوكان : اللغة و الخطاب ، أفريقيا الشرق ، ط1 / 2001م ،المغرب ، ص 142.